النوبة.. الحجر والبشر

فى المبتدأ:

الحضارة المصرية هبة أهلها.. لأنها إبـداع خاص بالمصريين، ووثائق التاريخ.. وحفائره أثبتت وحـدة ونقاء الجنس المصرى على حد توثيق «قلندز تبرى» .

هاتـان حقيقتـان وهما منطلقتان مـن إيمان عميق بوحـدة الوطن، ومسيرته الحضارية التى تؤسس للوعى الذى ينتقل من مستوى «الخصام والدعوة إلى الفرقة والسعى إلى تحقيق مصالح ضيقة» إلى مستوى «الحوار المنطلق من مسائل لا تقبل القسمة على اثنين، وصولا إلى مستوى الوحدة، غير متجاهل لمسألة التنوع واحترام الخصوصيات» .

ذلـك يدفع إلى تأسـيس الوعى بالتاريخ الـذى يصنع نهضة الأمة، ويرسـخ للعلاقات الحقيقية القائمة بينهـا، ووحدة التنوع هى ضرورة حتمية للتقدم فى الزمن، بالتاريخ وفى التاريخ.

...

هذه السخونة فى المشاعر «انتابتنى» نتيجة عاملين:

الأول: تلك الإثارة المجوجة حول أثنية الوطن المصرى، الذى يضم فى مقدمة رئتيه «النوبة» .. تلك الأرض بنية اللون، ومواطنها الأسمر، الذى فى سمرته رمز الأصالة، وأصالة الانتماء إلى الأرض الطيبة.

فضلا.. عن تلك الدعوة المسمومة فى «الانفصال» وتحويل الخصوصية النوبية، والتنويعة المصرية إلى حق فى تكوين هامش منعزل عن الوطن الأم باسم الظلم والإهمال والتهجير والإبادة، وذلك عبر بوق أمريكا راعية النزعات الانفصالية والزعزعة الدينية والتفرقة العنصرية.. مع التأكيد على تباين اللون، بالرغم من أن بعضا من أصدقائى وأهلى، وهم من أصول شمالية خالصة. لا يختلفون قيد أنملة فى لونهم عن أهلنا فى النوبة.

الثانى: زيارتى - مؤخرا - لمتحف النوبة بأسوان، الذى يعد «مفخرة» على المستوى الفنى، وفى العمق، هذا النسيج المصرى الخالص عبر السنين، التى شكلت بحق «حضارة» هى «هبة المصريين» والتعبير للدكتور زاهى حواس، لأنها تمثل نقاء خالصا للجنس المصرى، الذى لا يفرق بين شماله وجنوبه وغربه وشرقه.

(١)

ومازلنا فى المبتدأ

فى إهداء الروائى النوبى حجاج أدول إلى محمود سيالى فى رواية «الكُشر».. ذكر أن محمودًا نصح أهله بالصعود إلى الجبل، حتى ينجُوا من الموجة النيلية، وألّا ينحدروا شمالا، فلم يستبينوا النصح، إلا ضحى الغد!

والمعروف «طبيعيا» أن الموجة النيلية تأتى من الجنوب، لأن نهر النيل، هو النهر العاصى، لأنه ضد الطبيعة - كما يقول عمنا جمال

حمدان – «كل أنهار الدنيا تنبع من الشمال وتصب فى الجنوب، إلا نهر النيل، فينبع من الجنوب ويصب فى الشمال، إنه العاصى الأعظم» !

ولنتأمل مقولة «أدول» وهى ليست اجتزاءً من النص:

«تجرى المياه الأفريقية نحو الشمال محملة بالغرين المخصب، قائلة لناس الوادى، خذوا المياه المقدسة، وازرعوا بها أرض الله المقدسة، كلوا هنيئا مريئا، ولا تسرفوا، ولا تنسوا ربكم الواحد الأحد الذى يرسل لكم تلك المياه الولادة بقدر».

ويبدو أن الكابوس الذى هاجم قرية توماس – فى رواية الكشر – بذلك الطوفان الذى سيغرقها، ونفس الكابوس الذى هجم بنت عبد الله شاتى حتى أعياها، هو ذلك السد العالى الذى أدى إلى إغراق أرض النوبة. ويبدو – أيضا – أنه كابوس حجاج أدول.

ويتضح – أيضا – من الرواية، تلك «الولولة» من جانب نساء قرية توماس خوفا من الطوفان الذى سيغرق قريتهن، صار الهاجس لدى أدول، والذى تحول من حق التوطين فى أرض الأجداد المقدسة، إلى تلك الهجرة غير الطوعية، وتحول لديه من حق المواطنة، إلى دعوة الانفصال وتكوين ما يسمى «بيت النيل».

وأعترف بهذا التسجيل الإبداعى، من خلال الموروث الذى يتضح فى هذه الصورة البديعة التى ساقها أدول لنساء قرية توماس «رقصة النائحات الجماعية» مازالت نساء القرية غارقات فيها، يحْسُون الرمال على رءوسهن، يدبدبن بأرجلهن ذات الخلاخيل فيعطيهم

الرنين إيقاعا حادا، يلوِّحن بأياديهن، فتصدر صلصلة الفوايش الذهبية والخزفية، صلصلة قدر يحوم ويستقر على رءوسهن» !

هذه الصورة الصادقة لنساء توماس النوبية، هى ذاتها متكررة فى ريف مصر الشمالى، ومتكررة فى نجوع الصعيد.

...

أفهم.. واستوعب هذا العالم القديم - الذى يقدمه أدول - حيث العذوبة والخيال، حيث اللعب فى الجرن، والجموح الجنسى لدى المراهقين فى لعبة «الاستغماية» .. كلها محصلة طبيعية للتعامل البسيط مع الطبيعة، وهى تمثل الخصوصية، لكنها لا تعنى الانسحابية.

...

وقد اتفق حجاج أدول فى رواية «الكُشر» ومحمد خليل قاسم فى «الشمندورة» .. فى ذلك الخطر القادم من الفيضان، على إثر بناء السد العالى عند أدول، والتعلية الثانية لخزان أسوان عند قاسم، لكنهما اختلفا فى المقصد، الأول يتعى، ويطالب بالقصاص من خلال كيان انفصالى يسمى «بيت النيل» .. والثانى يبحث عن العدالة الاجتماعية، وعلى حد تعبيره «نحن نوبيون نعرف معنى أن تكون نوبيا وفقيرا» !

والشمندورة - على حد وصف فريدة النقاش - رواية كفاح من الطراز الأول، هنالك قرية «قتة» وعدد من قرى بلاد النوبة التى تمثل فيما بينها كيانا اجتماعيا وتاريخيا متسقا، تحشد قواها وتستعين بكل مقوماتها الروحية والمادية لمواجهة الطوفان القادم.

«نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرن» .. وهو تشبث به كيان حضارى واجتماعى متماسك، مهدد بالاندثار من خارجه، عاجز بحكم حدوده على التناطح مع الفيضان القادم، مع الدقات العنيفة على أبوابه للعالم الخارجى الذى لا يأبه به.

لقد أنتجت الثقافة الخاصة ببلاد النوبة – والتى تكونت عبر تاريخ طويل فى أعماق جنوب الوادى لتمتد إلى شماله – عددا من خيرة مثقفى مصر، منهم زكى مراد ومحمد خليل قاسم ومحمد حمام ومحمد منير – ليسهموا أكبر كثيرا من الكم العددى لأبناء النوبة، وليصبح هذا الإسهام علامة مضيئة فى ثقافتنا المصرية المعاصرة.

واسمعوا معى آخر سطور الشمندورة.. وهى تحمل الأمل

«وقبل أن يختفى النجع، رأيت النيل يبرق بثريات باهرة، تصعد، ثم حانت منى التفاتة جانبية إلى الشمندورة الحمراء، فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلى قاع أليم، ثم تهدأ، لتعاود النضال من جديد» !

والرواية.. ليست بكاء على أطلال، وانتقاما من واقع سياسى أو تاريخى، لكنها رؤية متفائلة للعالم، مؤمنة بالإنسان، وبحقه فى العيش بحرية وكرامة.

(٢)

يمتد نظرى من أعلى قبة فى أسوان، من كوخ يسمى «البيت النوبى» تتكشف أسوان أمامى، يتجه نظرى جنوبا جنوبا، لكن سرعان ما أتحول

شمالا فى حركة لا إرادية.. إذن هو «الوطن» من جنوبه إلى شماله.

والبيت النوبى ليس متحفا للتاريخ، إنه «مقهى» متواضع، لكنه فى موقع سحرى.. مع إطلالة صباح جديد، تشرق الشمس الذهبية ناشرة نورها، محتضنة النيل، الذى أتصفح أبجديته بفخر إلى درجة الحماسة، فأشتعل دفئا، وفى غروبها - أى الشمس - وبنفس اللون الذهبى، تغطس فى مياه النهر، لكنها فى الصباح التالى تعود، لتنفض عنها رزاز المياه النيلية المقدسة بعد أن توضأت بها، لتعلن نهارًا جديدًا.

ما بين الأمس

واليوم.. وغدا

أذهب للتاريخ

هى.. ليست محاولة لتمصير النوبة، أو إكسابها هذا اللون البنى لنيل مصر، أو أننا أبناء وطن واحد.

ليست القضية فى رأسى ويقينى ذلك.

إنما هى.. قضية الوطن الواحد متعدد الأعراق، متباين الثقافات، الذى أفرز حضارة، هى هبة أهلها.

وما يدهشنى - حقا - ويثير الأسئلة المفتقدة فى رأسى، كيف صنع الإنسان المصرى حضارته؟ كيف طوّع الحجر، وصنع منه فنا؟ كيف تعامل مع هذه الطبيعة القاسية منذ آلاف السنين فى هذه البقعة المقدسة من أرض مصر؟

من البيت النوبى من فوق هذه القبة العالية الساحرة أتأمل مجرى النهر، هذه الصخور العاتية، وعندما أجلس القرفصاء أمام رمسيس الثانى فى معبد «أبو سنبل» أنتظر سطوع الشمس على وجهه فى الواحد والعشرين من شهر فبراير، والواحد والعشرين من شهر أكتوبر من كل عام، وفى الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بالتمام والكمال، وعبر آلاف السنين، مع تغير العوامل المناخية.. أتأمل ذلك.

إذن هناك سر

لكنه ليس سحرا

هناك علم

وليست خزعبلات!

وعندما أتأمل تمثاله المسكون فى حضن الجبل والذى يرتفع أكثر من ثلاثين مترا وبجواره زوجته نفرتارى الجميلة أخالنى يقول لأحفاده وكل من اندهش لرؤيته من كل أجناس الدنيا: «يا أطفالى.. لكى تبقى الحضارة، يجب أن يكون العلم والإبداع والجدية والإخلاص.

...

وندخل إلى عالم الحجر

فالمسافة من أسوان إلى «أبو سمبل»، كانت مسرحا لحضارة نوبية، ولنتأمل تقسيم النوبة جيومورفولوجيا وجيولوجيا، وهى تنقسم إلى وادى النيل والصحارى.

فـي الوادى يمر النيل النوبى من حلفا إلى أسـوان، قاطعا مسـاحة ٣٥٠ كم عـبر وادٍ ضيق تحفه أجراف حادة الانحدار، وفيما بين حلفا وبلانة، شـق النهر واديه فى صخور من الحجر الرملى، وإذا كان هذا المجرى قد اختفى الآن تحت بحيرة السد العالى، فإن بقايا هذه الصخور لا تزال طافية مثل الجزر على سطح البحيرة.

وفيما بين منطقة وادى العلاقى وأسـوان، شق النيل واديه فى أرض جرانيتيـة تعلوها طبقة رقيقة من الحجر الرملى، وقبل تكوين بحيرة السـد العالى، كان النهر يشق مساره فى الصخور المتبلورة عند كلابشة بعرض لا يزيد على مائتى متر، وكانت هذه بمثابة أضيق بقعة للنيل فى مصر، مما انتفى معه وجود أى سهل فيضى على جانبيه، وعند أسوان، يتخلل النهر كتل هائلة من الصخور النارية التى تشكل الجندل الأول، وفى شماله، تتلاشـى هذه الصخور النارية، لتظهر بدلا منها الجزر الطينيـة والرملية، التى ترتكز علـى بقايا صخور نارية أو طبقات من الحجر الرملى.

والشق الثانى:

الصحـارى: وفيمـا بين أدنان وكلابشـة، تحف أجـراف الحجر الرملـى ببحيرة السـد العالى، وهى طبقات أفقيـة معتدلة الميل ناحية الشمال، متعددة الألوان، ما بين الأسود والبنى المحمر والأصفر الباهت والرمادى الأبيض، مما أعطى منطقة النوبة صبغة بنية متميزة.

وقد تأثرت صخور الحجـر الرملى بالصدوع الكثيرة ذات الاتجاه، شرق – غرب، خاصة جنوب مرتفعات كورسكو، وشمال – جنوب، فى شمال وجنوب كورسـكو، بعضها له امتداد ملحوظ مثل صدع كلابشة، وقد كانت لهذه الخطوط التركيبية أثر كبير فى تشكيل تضاريس منطقة النوبـة، ويرى ذلك فى اتجاهات الأعـراف «Ridges» ، وفى الظواهر المورفولوجية، وفى مسار النهر، وتتخذ الأشكال المورفولوجية اتجاهًا شرق غرب فى الجنوب، وشمال جنوب فى شمال كورسكو، وفى المنطقة الواقعة بين كورسكو وأسوان، حيث يظهر الجرانيت والنيل الأسوانى تحت غطاء رقيق من الحجر الرملى، كما أن ظهور الكثبان الرملية سمة مميزة للمنطقة.

أما فـى الجنوب بالقرب من «أبى سـنبل» ، فتظهر الموائد الصخرية، والأقمـاع المخروطية مـن الحجر الرملى على جانبى بحيرة السـد العالى. وتظهر الأعراف الطولية من الحجر الرملى شمال كورسـكو بدلا من التلال المخروطية من الحجر الرملى، نتيجة ما يسـمى الحركة التقوسية، عندما تحيط بمسافة منبسطة ومتسعة أكثر من ٣٠٠ كم جنوب صدع كلابشة.

(٣)

.. وفى زيارة للتاريخ

وبالكشـف عن البشـر فى هذه البقعة المقدسة، من أرض مصر، تشير الكشوف الأثرية إلى مدى الارتباط الحضارى الذى جمع أهل وادى النيل،

جنوبه وشماله، فخلال الحقب الزمنية المختلفة، التى تعرف باسم العصر الحجرى القديم، تنقلت بين جنباته جماعات اعتمدت فى حياتها على صيد الأسماك والحيوانات البرية، ويستدل على ذلك من الأدوات الحجرية التى خلفوها وراءهم، والرسوم الصخرية المنقوشة على جانبى النهر، التى أوضحت إقامة مساكن مؤقتة قريبة من النهر، وقد عثر على آثار هذه الجماعات فى أماكن عديدة مثل «عافية وخور داود ووادى السبوعة وتوشكى».

وتشير الوثائق والكشوف الأثرية إلى أن تحولات حضارية طرأت على أهل النوبة منذ أكثر من ١١ ألف سنة، إذ عثر فى موقع «النبطة» ٤٥ كم غرب أبى سنبل، على شواهد معمارية من منازل ومقابر تعتبر مؤشرا لاتجاه المجتمع نحو الاستقرار، مما يشكل مرحلة انتقالية بين العصر الحجرى القديم، والعصر الحجرى الحديث.

ومع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، استهل الشطر الشمالى لوادى النيل عصوره التاريخية، عندما اخترع نظاما للكتابة، وتمكنوا من إنشاء دولة موحدة، تصرف أمورها حكومة مركزية واحدة، إلا إن الأمر لم يسر فى النوبة على نفس الوتيرة، نظرا لظروفها البيئية والجغرافية، ولضيق مساحة الأراضى الصالحة للزراعة، لذلك، كانت خطاهم فى الحضارة أبطأ من أشقائهم الشماليين.

ونظرا للرابطة العضوية بين شمال الوادى وجنوبه، لم يجد علماء الآثار مناصا من التوفيق فى الرؤية التاريخية، فقد انتشرت فى العصر

الفرعونى شـواهد كثيرة فى أماكن مختلفة فـى النوبة، وتدل الصفات التشـريحية لأصحابها على أنهـم لم يختلفوا «عنصريـا» عن أقرانهم الشـماليين، ويشير تزايد السـكان على أن عناصر مهاجرة من الشمال استقر بها المقام فى النوبة.

كما تتوفر شـواهد كثيرة على صلة النوبيين بالشـماليين، فقد عثر فى بعض دفنات عصر بداية الأسرات على رءوس مقامع بمقابض ذهبية وأدوات نحاسية وصلايات وأوانٍ فخارية وحجرية كلها مصرية الطراز، وفى جبل سليمان جنوبى بوهن نقشت لوحة باسم الملك «جر» أحد ملوك الأسرة الأولى المبكرين.

وفى الدولة القديمة ٢٧٠٠ – ٢٢٠٠ ق.م كانت مصر تمر بواحدة من أزهـى وأرقى عصورها التاريخية، وقد ارتـأت حكومتها المركزية فى «منف» أن تبسـط سـلطانها على كل أطراف الدولة، بما فى ذلك النوبة السـفلى، وكذلك أنشطتها فى المحاجر، لا سـيما محجر «الديوريت» غربى توشكى، وظهرت فى أماكن مختلفة أشهر ملوك هذا العصر أمثال «خوفو وخفرع ومنكاورع» من الأسـرة الرابعة، و «سركاف وساحورع» من الأسرة الخامسة.

وزاد نشـاط الحكومـة المركزيـة كثافـة خلال الأسـرة السادسـة ٢٣٤٥ – ٢١٨١ ق. م، ويظهـر ذلـك فـى نصوص بعـض كبار رجال الدولة، وحكام أسـوان، فقد قام الموظف المشهور «ونى» بتمهيد خمس قنوات للملاحة النهرية بين صخور الجندل الأول لتيسير سبل الملاحة

بين شطرى الوادى، وجند فى جيشه عناصر نوبية من «أرثت وواوات ويام ومجاى» لمحاربة المغيرين من البدو على حدود مصر الشمالية الشرقية، وقام «حرخوف» حاكم أسوان بأربع رحلات استكشافية فى النوبة وصل فيها إلى «يام» التى كانت تقع جنوب الجندل الثانى، ذلك فضلا عن أسماء الأماكن والقبائل النوبية التى راحت تتردد فى النصوص المصرية، فقد ظهر فى متون الأهرام اسم الإله النوبى «ددون» والذى يوصف بأنه «جالب البخور».

(٤)

وبعد مرور المصريين بتجربة شديدة المرارة بعد وقوعهم تحت الهكسوس، تغير مفهومهم للحدود الآمنة فى الدولة الحديثة ١٥٥٠-١٠٧٠ ق.م .. وما إن تخلصوا من الحكم الأجنبى، وتحررت إرادتهم، حتى سعوا إلى توطيد أركان استراتيجية دفاعية جديدة، قامت على أساس توسيع حدود مصر، والتى هيأت بناء أول امبراطورية مصرية فى أفريقيا، بل وآسيا.

وانعكس الفكر السياسى المصرى الجديد على علاقة مصر بالنوبة، ولم ينس الفراعنة الجدد، تحالف دولة «كوش» النوبية مع الهكسوس، لذلك وجدوا لزاما عليهم ضرورة القضاء على أدنى خطر قد ينشأ، ويهدد الأمن القومى، وذلك بضم جنوب الوادى إلى الدولة المصرية فى الشمال.

وإذا كان الفضل يرجع إلى كل من «كامس وأحمس» فى عودة النوبة السفلى إلى سابق عهدها كجزء من الدولة، فإن الفضل يعود إلى

«تحتمس الأول» فى القضاء على الكوشية ودخول عاصمتهم «كرما» .. والوصول إلى الجندل الرابع، وفى عهد حفيده «تحتمس الثالث» غدت النوبة بأسرها – من الجندل الأول حتى الرابع – جزءًا لا يتجزأ من الدولة المصرية.

ولم تعد النوبة فى نظر الدولة المصرية مجرد إقليم حدودى، ينبغى حمايته بالقلاع والحصون – كما كان الحال فى الدولة الوسطى – وإنما اعتبرتها امتدادا طبيعيا للأراضى المصرية، تسرى عليها النظم التى كانت مطبقة فى سائر أنحاء الدولة.

(٥)

ويتسم التراث الشعبى النوبى بالثراء والتنوع، ويتمتع بخصوصية تميزه عما عداه فى أرجاء وادى النيل، نظرا لأنه نتاج ثلاث جماعات:

١ – الكنوز ويتكلمون اللغة المانوكية.

٢ – الفديجة ويتكلمون اللغة الفاديجية.

٣ – عرب العليقات الذين وفدوا على النوبة من شبه جزيرة سيناء خلال القرن الثامن عشر الميلادى.

وتتكون قرى النوبة من مبان متقامة من الحجر والطمى والرمل، أما أسطح منازل محدودى الدخل فتتكون من جريد النخل وسيقان الذرة، وأسطح الميسورين هى على شكل قباب مبنية من اللبن، وعادة ما تفرش أرضية المنازل بالرمل النظيف، وتتدلى من أسقفها أدوات

الاستخدام اليومى، ويزين جدران المنزل خاصة الواجهات حنيات وزخارف، ويتكون المنزل - عادة - من المدخل، الفناء، غرف النوم «القبارى» المخزن، المطبخ «الديوكة» والمرحاض والمزيرة.

وتتعدد أنواع الحلى النوبية، منها القلادات والدلايات والأساور والخواتم والأقراط وزمام الأنف والخلاخيل، وغالبا ما تصنع من الذهب أو الفضة، وتطعم بأحجار شبه كريمة. وتنحصر الصناعات والحرف النوبية فى السلال والحصير من سعف النخيل والأوانى الفخارية، ويذكر هنا، أن هذه الصناعة اعتمدت اعتمادا كاملا على النساء اللاتى يبدأ إعدادهن لها منذ الصغر!

ولجأ النوبيون - شأنهم فى ذلك شأن أبناء الوادى - إلى التمائم والأحجبة والأحراز لجلب الخير، وقد أخذت أشكالا مختلفة، منها ما يرسم على الجدران مثل العقرب والعين وشكل المثلث، ومنها الضفائر المصنوعة من الخرز والصوف، وتعلق على أعمدة أسرة النوم، ومنها سلال الخوص الملونة والمزينة بقواقع ناصعة البياض تتدلى من أسقف الغرف مثل النجف.

ويتسم الرقص النوبى بالجماعية، يشترك فيه الرجال والنساء على حد سواء، ويرتبط بموسم الزراعة والحصاد، مما يساعد على وفرة المحصول وسعة الرزق.

والزواج النوبى، مسئولية الوالدين، وإن كان العم والخال يشتركان فى تحمل المسئولية، لأن نظام القرابة النوبى، نظام مزدوج، بمعنى أنه يجمع بين النسب الأبوى والأمومى.

ويعتبر زواج الفتى من ابنة عمه، مسألة أخلاقية – كما يحدث فى القبائل الشمالية – وإذا تزوجت الفتاة بغير ابن عمها أو ابن خالها، يصبح مهرها أقل بكثير!

ويحرص النوبيون على تقديم النقوط والهدايا العينية لأسرتى العروسين، للمساعدة فى إقامة حفلات الزواج – ولأن النيل يشكل عنصرا جوهريا فى الثقافة النوبية – لذلك يتعين على العروسين أن يهبطا إليه ليلة الزفاف، ويغتسلا بمياهه أملا فى جلب الخير وإنجاب الأطفال!

(٦)

وأصل إلى «الخبر» ... للإجابة عن «المبتدأ».

وتتمحور الإجابة فى جملة واحدة «متحف النوبة».!

وتعود فكرة إنشاء المتحف إبان الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، فى الستينات والسبعينات، من القرن العشرين، ليضم التراث الأثرى والتاريخى والحضارى والبيئى لبلاد النوبة – كما يقول أسامة عبد الوارث مدير المتحف – وليكون تتويجا لدور الحملة الدولية لإنقاذ هذه الآثار بأن تعرض فى متحف.

وتلخصت فكرة تنسيق الموقع – كما يقول د. أحمد نوار الذى حمل على عاتقه ورفاقه إنشاء المتحف – على اعتبار التكوينات الصخرية من أبرز عناصر الموقع، واستعمالها فى تكوينات متنوعة، تميز

التنسيق المطلوب، ليجعله مناسبا لعرض التماثيل واللوحات الأثرية كبيرة الحجم فى الهواء الطلق.

كما تم عمل مجموعة من المسارات، وحفر قنوات مائية وبحيرات ترمز إلى نهر النيل من المنبع إلى المصب، مع مجموعة جنادل توضح العلاقة بين النهر والقرية النوبية المحاطة بنباتات ذات أصول مصرية قديمة، إضافة إلى مسرح مكشوف، وعرضت على جدرانه مجموعة من الرسوم لحيوانات ما قبل التاريخ.

ويتكون المتحف من ثلاثة طوابق «تحت الأرض ويحتوى على قاعة العرض الرئيسية ومعامل الترميم والورش، والأرضى، ويحتوى على المداخل الرئيسية وقاعات العرض، أما الطابق الأعلى، فيحتوى على كافيتريا ومكتبة ومكاتب الأمناء وإدارة المتحف ومركز للمعلومات.

والمتحف مقام على مساحة ٧٠٠٠ م٢، تحتل مساحة الموقع الخارجى والمكشوف ٤٣٠٠ م٢ ، فيما تحتل مساحة قاعات العرض ٣٥٠٠ م٢، و ١٠٧٠ م٢ للمخازن، و ٢٣٧٠ م٢ للخدمات العامة.

ويطمح المتحف – على حد تعبير أسامة عبد الوارث – فى أن يصبح مركزا علميا لعرض التراث الحضارى النوبى من الناحية التاريخية والأثرية، إضافة إلى الجيولوجية والثقافية، من أقدم العصور حتى بناء السد العالى، كما أن المتحف مصمم ليكون مركزا للدراسات المتحفية بمنطقة أسوان.

والمتحف يستقبل زواره على مدار العام بشكل مكثف – كما تقول مسئولة العلاقات العامة حنان الجابرى – ويستضيف الندوات والمؤتمرات سواء كانت ثقافية أم علمية، فضلا عن أن مكتبة المتحف تقدم للباحثين والزوار ما يحتاجونه من كتب باللغات المختلفة.

وعن أناقة المتحف ونظافته، تقول: هذه تخرج من نطاق الوظيفة إلى حيز الإيمان بالموقع، باعتباره متحفا لحضارة عريقة، وواجهة حقيقية لمصر، ونحن لا نقل عن الفرنسيين فى الاهتمام بآثارنا، وإذا كان أجدادنا قد تركوا لنا هذه الثروة ممثلة فى هذه الحضارة العظيمة، فمن باب أولى على الأحفاد الاهتمام بها، ورعايتها.

ويرى د. أحمد نوار:

أن المتحف ظل حلما طال انتظار تحقيقه، وهو يحكى قصة الكفاح العظيمة للإنسان المصرى، بين الصخور العتيدة، وشلالات النهر الجارفة، وهو يبنى حضارة تتحدى الزمن، فنا وعلما وثقافة. وهو يخلد ذكرى التلاحم الرائع بين شعوب العالم فى استجابتها لنداء اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة.

وتبرق عينا «نوار» وهو يلخص المشروع المتحفى بقوله: «متحف النوبة جوهرة سمراء تفيض سحرا وجمالا فى جنوب مصر».

(٧)

وإذا كان للدكتور أحمد نوار الحق فى أن يرتعش جسده وهو يزور المتحف بعد تسع سنوات من افتتاحه، خوفا من أن يكون قد

لحقه الإهمال، شأن مشروعاتنا الجميلة، والتى تبدأ برَّاقةً وسرعان ما يعلوها التراب، وإذا كانت لدموعه الحق فى أن تذرف بعد أن وجده معافًا أنيقا شابا.!

ولى الحق، فى أن أمشى مختالا، بالرغم من إيمانى بالآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

وإعجابى بمقولة أبى العلاء المعرى

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وجدتنى أخرق ما أؤمن به، واختال، فإذا كان «نوار» قد دمع لرونق ما شارك فى صنعه، فأنا لدى أسيابى:

«إن فى مصر متحفا بهذا القدر من الرونق، فضلا عن أن هذه الحضارة التى شيدها أجدادى، تمثل حياة نهر، وحياة إنسان، وكفاح استمر، وعُمْر امتَدَّ» !

(١) سورة الإسراء الآية ٣٧.